ظل قرصُ الشمس في الأعلى بظهوره واختفائه.

مرت سنتان..

ومرت سنة ثالثة..

ارتفعت النخلةُ عن الأرض. زاد سعفُها. مالت بجذعها تتّكئ على الجدار، بينما بعضُ شوكها ينغرس ويَخْدش وجهَه.

احتمل الجدارُ وجعَه. ما ضاق بحملها، ولا بتدلُّلها. أَحبَّ اختلاس ملامستها الرطبة بسعفها الأخضر، ورائحةِ طلعها، وزقزقةِ عصافيرها الصباحيّة.

مرّت أيامٌ ككلّ الأيام المرسومة بقلم الرصاص، وشهورٌ عمياء دون ذكريات..

تسلّلتْ سنواتٌ عابرة كما في كل الأزمان.

اعتادت النخلةُ ميلَها على الجدار الصامت، تُلْقي بحَمْلها وتعبِها عليه، تَخْدش وجهه وتدميه بسعفها وشوكها، دون أن تنتبه إليه بألمه وحسرته.

ذات يوم، احتجب قرصُ الشمس، وعفر الغبارُ الأصفرُ وجهَ السماء. ولسببٍ ما، كان الجدار قد اتخذ قراره المجنون: فقد ملَّ تجاهُلَ النخلة، وكره وحدتَه وصمتَه بوجعه، وأراد أن يضع حداً لحياته البائسة. وفي التوّ انتفضَ، فاهتزت الأرضُ. اندفعت النخلةُ إلى الأمام، مالت على وجهه، فثارت عاصفةٌ عاليةٌ من التراب □.

قصص من الكويت

فاطمة يوسف العلي

الثالثة... آه

الدشداشة المنشاة، الغترة الحمراء، النعال النجديّة. آه.. تُقلقه ثلاثُ شعراتٍ نافرة في حاجبه الأيمن، لا بدَّ أن تعود إلى أماكنها. لا يعرف لماذا تلتوي وتدور. حَدَثَ أنَّ قصّها، نتّفها، صَبَغَها، حاول ترويضها بكلّ وسيلة، ولكنَّها لم تتروَّض أبداً، بل ظلَّت كما هي: ما إنْ تطول إلى سنتميتر واحد حتى ترتفع إلى أعلى، تلتوي حول نفسها مثل ثعابين صغيرة مشاغبة، ترسم ثلاثة خطوط كأنَّها رؤوسُ أسهمٍ تتجمَّع كما يتجمَّع الأشرارُ لارتكاب جريمة.. ويكون هو الضحيّة. يرسم حاجبه الأيمن إلى أعلى، فيغدو في هيئة القرصان. أين شاهَدَ صورةَ القرصان؟ لا بدَّ في أحد الأفلام؛ فبلادنا لم تعرف القراصنة. مرةً واحدةً ذكر الشيخ عبد العزيز الرشيد سيرةَ قرصان كويتيّ اسمُه «إرحمة»، ولم تدم سيطرتُه على صفحة الخليج؛ فقد قُتل. وفي سيرة هذا القرصان الخليجيّ الوحيد أنَّه كان لا يغيِّر ثيابه، يعني أنَّه كان بائساً جداً، وهو يختلف كثيراً عن القرصان الذي نشاهده في السينما، حيث العنفوان والبطش، إلى جانب الوسامة المجروحة بالغطاء الجلديّ الذي يَطْمس العينَ اليسرى أو يداريها. وفي هذا القرصان تَقْترن الشراسةُ بالعاطفة الثائرة: فهو يلعب بالسيف وبقلوب العذارى، يداعب مقبضَ سيفه وحلماتِ الصدور الناهدة، يقبِّل الرصاصةَ قبل أن يَقْذفها إلى قلب عدوِّه ويقبِّل الشفاهَ الملتهبة بعشق القوّة.

هو لم يحلم أبداً بأن يكون قرصاناً. بالعكس، يريد أن يَتْرك في وجدان الآخر، أو الأخرى، انطباعاً بالوداعة، بالرِّقَّة، بأنَّه العاشق الحالم الذي لم يَجِدْ مَنْ يفهمه. هل يمكن أن تكون هذه الشعراتُ النافرة إلى أعلى صيغةَ اعتراضٍ على حلْمه الذهبيّ النابع من قلبه؟

حرص على وضع المسباح العاج في جيبه. نَثَرَ قليلاً من العطر على كتفيه. هل حلم بأن تتوسَّد كتفَه، وأن يجد عطرُه طريقاً إلى أنفها الرقيق؟ لنفترضْ أنَّ هذا حَدَثَ، فماذا يمكن أن يقول لها: «أحبُّكِ، أنا عاشق، صدقيني أنَّني متيَّم بك؟ راح زماني هدراً وكنتُ في انتظارك؟!». يا لها من عبارات مستهلَكة تعلن عن كذبها؛ إنَّها مثل ساندوتشات الشاورما والهامبورجر، بضاعة حاضرة، صيغة جاهزة، حب معلّب. إذن ماذا سيقول لها؟ لماذا لا يجرِّب الصدق؟ الصدق الصدق، لا الصدق

كما يتخيّله. مشكلته أنّه يفكّر في اللّحظة الآتية، ويَرْسم أطراف المقابلة، ويتخيّل عبارات الحوار، وعندما يتحوّل الخيالُ إلى حقيقة ينصرفُ قلبُه ووجدانُه إلى شيء واحد يأمل أن يحقّق ما سبق له أن تخيّله؛ وهنا تَحْدث فجوةٌ رهيبة بين الواقع وما كان يتمنّاه، فيَشْعر محدّثُه أنّه شخص مزيّف، وتنتهي المقابلة إلى الفشل.

استعاد ذكرى الآه الأولى. ماذا لو حدّثْتَه عنها؟ حقاً، ماذا لو قالت له: «لقد تزوجتَ قبلي مرتين، فلماذا أكون الثالثة»؟ والثالثة آه؟! هل من المناسب أن يُلْصِقَ العيوبَ بهما: بالآه الأولى، والآه الثانية؟ ألن يجعلها هذا تخاف، وتتوقّع أن تكون هي «الآه» الثالثة؟ لكنْ.. لماذا يزيّف الحقيقة؟ إنّه يؤمن في قرارة نفسه أنّه لم يخطئ. راح يطيل التفكير، يقلّب الرأي، يَطْرح كلَّ الاحتمالات، يَبْحث عن وجه الصواب في كل ما يفكّر فيه، يَسْتخدم المنطق، والإيديولوجيًا، وحقَّ المخالفة، والرأيَ والرأيَ الآخر، وكلَّ هذه الشعارات البراقة التي تدلّ على الثقافة.. فكيف يكون على خطإ؟

انتهى من تعديل الغترة. وَضَعَ المسباحَ في جيبه، وبرقت الأزرارُ الذهبيّة في أعلى الدشداشة. قام وألقى نظرةً جانبيّةً على شَعْره الذي لَمَعَ بسوادٍ ربّاني وكأنّه مصبوغ بالكحل البدويّ الشهير. وجدها في انتظاره حسب الموعد، وكانت نقيضاً له في كل شيء: فقد كانت بثياب العمل التي رآها بها في النهار. غلبتْه الدهشة: هل يُعقل أنّ هذه الفتاة خرجتْ من بيتها للقاء الزوج المنتظر، للقاء حبيب؟ هل يعني هذا أنّها لم تفكّر فيه لحظةً واحدة؟

قالت: ليس إلاّ القهوة..

قال: هذا مشروب العجائز وقارئات الفنجان.

قالت مبتسمة: قرأتُ فنجاني.. وانتهى الأمر..

انتهز الفرصة: أَوَجدتِني في القاع.. وأمامي طريق سفر؟

قالت مبتسمةً الابتسامةَ الهادئةَ ذاتَها: وجدتُكَ على وجه القهوة طافياً، وأمامَكَ بيتٌ وحياة مستقرّة..

تنهدّ. قال بصدق: الحمد للّه..

ـ ولكنْ عندي استفسار..

بلع ريقه. لعب بالمسباح بتوتُّر ظاهر. عدّل وضع الغترة. آه.. إنّها الشعرات النافرة إلى أعلى؟ اللّعنة! صورةُ القرصان تَسْطع في خياله : اللّطخة السوداء تغطّي العين اليسرى، والوجهُ المشدود، والأمرُ بذبح الضحايا. تطلّعَ إلى وجهها السمح يستعين به على الخروج من الجوّ الدمويّ الرهيب. قالت:

ـ لن أسألك عن الأولى.. ولكنْ، لماذا طَلّقت الثانية؟ أنا لا أنبش في الماضي، فقط على سبيل الخبرة والمعرفة بالشخص الذي يريد.. وأريد.. آه.. أريد الاقتران به.

انتشى قلبُه بالفرح لِمَا سمع. ولكنْ، لماذا الثانية؟ وهل يمكن أن تبدأ حكايةٌ من منتصفها؟ إنّه لا يعرف لماذا طلّق الثانية إلاّ بعد أن يَذْكر لماذا فارق الأولى!

قال لها:

ـ ولماذا التنكُّر للأولى؟

ـ فليكنْ..

ـ فليكن ماذا؟

ـ لماذا طلقتَ الأولى؟

ـ لم أطلّقها..

ـ لماذا؟

ـ لأنّي لم أكن قد تزوجتُها أصلاً. كانت خطوبة، مجرّدَ وعدٍ بالزواج.

أطبقتْ عليه:

ـ هل تَرَى أنّ الوعد لا يستحقّ الوفاء؟ هل القدسية محدّدةٌ بتوقيع المأذون؟ كنتُ أعتقد ـ وأنتَ متحضّر ـ أنّ الأمر عندك يختلف كثيراً.

انحنى أمام زخّة الرصاص المنهمِر على رأسه.. انحنى حتى أخفى رأسه في الرمال كالنعامة. أنقذه النادلُ القادمُ بفنجانَي القهوة، وكوبيْ ماء بارد. قال بيأس يحاول أن يكون لامبالياً ليوحي لها بالثقة:

ـ لا.. لا..

صمتتْ. ثم قالت بجسارة:

ـ ماذا تعني بلا.. لا؟

ـ ليست المسألة مسألة وعد وتهرُّبٍ، لا سمح اللّه.

ـ ما هي المشكلة إذن؟

ـ المشكلة أنّني اكتشفتُ أنّ خطيبتي ضلّت طريقها إلى ما تريد.

هزّتْ رأسها، قلبتْ كفّها، رشفتْ وجه الفنجان. قالت:

ـ لم أفهم.

ـ حسناً، المسألة بسيطة. الآنسة معجونة في السياسة. عقلُها، دمُها، أعصابُها، كلُّها: أميركا

الإمبرياليَّة، القوى العظمى، حق تقرير المصير، أفغانستان، حقوق المرأة، العولمة. تصوَّري، أي واللَّه، حتى العولمة! ولم يتبقَّ لها إلاَّ الحديثُ في الخصخصة، والفرانكفونيَّة، وأن تقدِّم طلباً للعمل في هيئة الأمم.

ـ وما المشكلة في هذا كلِّه؟ هذا دليل على اتِّساع أفقها.

رمقها بنظرة متشكِّكة. هل تثيره؟ تستفزّه؟ تريد أن تعرف ما في أعماقه؟ فكَّر، تمهل، ثم قال:

ـ لا مانع. بل أنا، كمثقف، أرحِّب بالزوجة المثقفة. ولكنَّ الثقافة لا تَصلُح أساساً لبناء حياة زوجيَّة سعيدة. وببساطة شديدة، أنا أريد أن أكون زوجاً سعيداً. وبعبارة محدَّدة مختصرة، هل أجد هذه السعادة عندك؟ هذا ما أسعى إليه، ودعوتُ اللَّه أن يحقِّقه.

ابتسمتْ مشجِّعةً. رمقتْه. ارتفعتْ أناملُه تَبْرم الشعرات النافرة لتلغي صورة القرصان. تحسَّس سبحته القابعة في جيبه. ابتسمتْ مجدَّداً. قالت:

ـ من حقِّكَ. السياسة مستوى من الفكر، والفكر مهم. طبعاً أنت تشاركني في هذا؟

بادر متلهِّفاً: طبعاً.. طبعاً.. ولكنْ..

ـ دعْ «لكنْ» هذه لي.. ولكنَّ الزوجة الحقيقيَّة لا بدّ أن تكون حذرةً في طرح القضايا العامة مع زوجها. (احمرَّ وجهُها عند ذِكْرِ كلمة «زوجها». تخيَّلتْ نفسَها معه في الفراش. تشوقتْ في لمحة إلى هذه اللَّحظة، ولكنَّها آمنتْ أنَّ الوقت لا يزال مبكِّراً لأن تحلم بهذا). أقصد أنَّ الحياة في المنزل ليست امتداداً للحياة في الخارج. البيت له أصول..

تصيَّد الكلمةَ العزيزة، تنهَّد، قال بحرارة:

ـ له أصول.. أحسنتِ واللَّه. هذا ما أفكِّر فيه، ولم أستطع الوقوع على الكلمة المناسبة.

أدهشها إطراؤه. فرحتْ بأنَّه لم يستطع، وبأنَّها استطاعت. قررتْ أن تزيد فرحها وفرحه. قالت:

ـ فعلاً.. البيت ملْكُ أهله: الزوج والزوجة. الحياة في الخارج ملْكُ المجتمع.. لهذا صفاته.. ولذاك مطالبه..

ـ نِعْمَ الرأي. هذا ما يعجبني فيك: أنك تعرفين تماماً ما هو المطلوب من زوجة محبة، فاهمة، تريد أن تعيش في سلام.

ـ والثانية؟!

انقضَّت عليه الكلمةُ كحجرٍ انحدر إليه من قمة جبل. لم يكن يظن أنَّها نسيتْ، وإنْ كان هو نفسه قد نسي. فرح بقدرته على التملُّص من تهمته الأولى، فهل يحصل على البراءة أيضاً في الثانية؟ لو أنَّه بدأ بالثانية لكان الأمرُ أيسرَ عليه. كانت الأولى مجنونة بالسياسة، لكنَّ الثانية.. لم تكن مجنونة مطلقاً، بل كانت غارقة في مسؤولياتها. وطرحُ قضيَّتها لا يحتاج إلى وضع صورتها في مقابل صورة الأولى، لأنَّ هذا سيَخْدمها. كان يريد أن يركِّز على الثانية وحدها، لتبدو عند التي تسمع امرأةً مهمِلةً لزوجها، غارقةً في ماضيها، مرتبطةً بأصولها الأُسَريَّة قبل الزواج؛ وهذا كلّه نقصٌ في وعيها بأهميَّة الزوج وحقوق الأسرة الجديدة.

صَمَتَ.

عادت تكرِّر: والثانية؟

ـ الثانية.. كخطوة ثانية.. تجاوزنا الخطوبة إلى عقد القران، ولكنْ لم نجتمع تحت سقف واحد.. لم يكن هذا ممكناً..

ـ لماذا؟ هل رأيتَ منها ما يَخْدش أخلاقَها؟!

سارع نافياً:

ـ لا. لا، معاذ اللَّه، كانت فاضلةً ومحترمة. ولكنَّها كانت، بالتحديد، مثلَ المركب المربوط بالشاطئ: عائمةً، وتَعْجز عن الحركة.

هزّت رأسها:

ـ بصراحة.. لم أفهم..

ـ كانت تحبّ أهلها..

ـ وهل في هذا ما يعيب؟

ـ لا، طبعاً، صدقيني، أنا أيضاً كنتُ أحبُّهم. ولكنْ، لشدّة حبِّها لهم صرتُ أكرههم.

ـ أعوذ باللَّه..

ـ وأنا أستعيذ به مثلك، وآسف لهذه الكلمة، ولكنْ هذه هي الحقيقة. لماذا شرَّع الدِّينُ فترةَ الخطوبة؟ لكي يتعرَّف كل طرفٍ على طبائع الآخر. ومن المؤسف أنَّ التَّعرف انتهى إلى الفشل.

ـ حتى الآن.. لم أفهم..

ـ مثلاً، .. مثلاً.. إذا جلسنا مثل هذه الجلسة، تصوَّري.. أنا وأنت، نتكلَّم الآن عن تجربتي في الحياة، وأنت تتكلَّمين عن رأيك في هذه التجربة. هذا نوع من التفاعل الحيّ الذي يَكْشف الجوانب الغامضة في الشخصيَّة، وبذلك.. إذا تزوَّجنا.. مثلاً.. إذا تزوَّجنا..

نكون على اتفاق؛ كلٌّ منا يَعْرف الآخر، بقدر الإمكان طبعاً.

قاطعتْه:

ـ جميل كل هذا، ولكنِّي لم أفهم.. كيف كانت مثلَ المركب المربوط بحبل..؟

ـ كانت مشدودةً إلى أُسْرتها. إذا جلسنا معاً، مثل هذه الجلسة مثلاً، لا كلام لها إلاَّ عن أختها المتفوِّقة في الجامعة التي يطلب ودَّها الأساتذة؛ وعن والدها الذي يَرْفض وضعَ توقيعه على أيِّ ورقة إلاَّ إذا وجدها معْتَمَدةً من رئيسه ومتطابِقةً للّوائح والقوانين. حتى أخوها الصغير الذي لا يَقْبل أن يشارك أولادَ الشارع اللعبَ إلاَّ إذا كان هو الرئيس، تحكي قصّته بالتفصيل الملّ.

ـ أنا أتفق معك، هذا أكثر من المطلوب.. ولكنَّه يدلّ على طفولة وصفاء ونفس.

ـ وأنا أريد زوجة، لا طفلة، وأريد حنكةً، لا صفاءً رومانسياً تافهاً. وبصراحة أنا أعتقد أنَّكِ لستِ مثلَ هذه ولا تلك.

أسبلتْ عينَيْها. رشفتْ من الفنجان الرشفة الأخيرة. قالت: فما العيب الذي ستكشفه في الجالسة أمامك؟

طفرتْ ابتسامته الجاهزة. تحسَّس سبحتَه في قاع جيبه. قال بثقة عالية:

ـ بصدق شديد.. الكمال، والجمال هما ما أشاهده. المهم أن يَجْمعنا بيت واحد..

وقاما بعد انتهاء فنجاني القهوة.

* * *

وجمعهما بيت واحد.. ودامت حياتهما عدَّة سنوات.. وأنجبا البنين، والبنات.. ولم تتكلَّم الثالثة في السياسة.. ولم تتكلَّم الثالثة عن أسرتها.. ولكنَّه في النهاية فارقها..

* * *

في المقهى نفسه، وربَّما أمام فنجانَيِ القهوة ذاتيهما، دار الحوار..

وكان يقول للتي أمامه:

ـ أنتِ مختلفة تماماً.. أنا عانيتُ.. تعذبتُ.. تحمَّلتُ.. ضِقْتُ. واحدة مغرمة بالسياسة، والثانية مثل السفينة المربوطة في الميناء لا تفكِّر إلاَّ في أهلها، والثالثة كانت تَعْبد أطفالها ولا تفكِّر إلاَّ فيهم. أمَّا البغل الذي يجرّ العربة، أنا، أنا بالتحديد، فلم تكن تعطيه أيَّ اهتمام. إنَّني أحلم بزوجة.. تؤكِّد لي كلَّ يوم أنَّها زوجتي. ها.. ما رأيك، أيتُّها الجميلة؟! □.

قصص من الكويت

ناصر الظفيري

ترنيمة متأخرة لشتاء ٩٢

* **بعد عامين**

يناير..

يقف تحت المطر.. ولا يقف المطر.. يفتح عينيه لإحدى قطراته... يُغْمضهما بسرعة.

يناير..

القلب مُشْبع بالهواء البارد، والريح تُعْول في شراييه الملبَّدة بالغيوم الحمراء.. ولم تمطر بعد.

يناير..

ومضت من دقاته اليوميَّة ثلاثُ دقات مليئةٍ بالغيوم والمطر. وكانت تَجْمع رداءها المخمليّ بلون القرفة، وتخرج.. من آخر ردهات القلب تخرج.